تواجد الأرمن في دير الزور فترة الإبادة الأرمنية

نورا أريسيان
narissian@hotmail.com

تحظى مدينة دير الزور على مكانة خاصة من الناحية التاريخية بالنسبة للأرمن في أرمينيا والشتات الأرمني، وتحمل رمزية معنوية بين المدن السورية. فقد كانت دير الزور الوجهة الأخيرة في مسير التهجير القسري لقوافل الأرمن، ومسرحاً لعمليات القتل والذبح على يد جندرمة الأتراك، ولذلك شيدت فيها كنيسة باسم الشهداء الأرمن، ومتحفاً يضم بعض الرفات ومقتنيات وخرائط تخليداً لذكرى الضحايا الذين لقوا حتفهم في تلك المنطقة، وأضحت المدينة فيما بعد محجاً لمئات آلاف الأرمن في ٢٤ نيسان من كل عام.

وفي هذه الورقة سنسلط الضوء على تواجد الأرمن في دير الزور فترة الإبادة الأرمنية. وتشكّل المجتمع الأرمني في المدينة، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، من خلال الدراسات التي تناولت تأريخ مدينة دير الزور والوجود الأرمني فيها.

وسنتعرف أكثر على تاريخ تواجد الأرمن في هذه المدينة أيام الامبراطورية العثمانية وخلال فترة عمليات الإبادة من خلال اعتمادنا على مصادر متنوعة.

وقد ذكرت الموسوعة الأرمنية في وصف دير الزور بأنها "*صحراء في سوريا، على ضفة نهر الفرات، حيث تم تصفية حوالي ٢٠٠ ألف أرمني الذين هجروا من مختلف المناطق من أرمينيا الغربية وتركيا بقرار من الحكومة التركية. وقد قام العرب بمساعدة الأرمن المهجرين في منطقة حلب وعلى طريق دير الزور وأفشلوا مخططات السلطات التركية وهدفهم في تصفية الأرمن على يد العرب. والتجأ آلاف الأطفال الأرمن لدى العرب في منطقة دير الزور*"[١].

في حين ذكرت الموسوعة العربية السورية أن دير الزور، هي حاضرة وادي الفرات، وقلبه النابض، وأكبر مدنه بعدد سكانها، وإحدى البوابات المهمة بين الأجزاء الشامية من البلاد ومناطق الجزيرة. عُرفت حتى عام ١٨٦٤م باسم الدير فقط، وذلك نسبة إلى معبد للكهان يتوسط التل الاصطناعي

الأثري الذي أقيمت المدينة القديمة فوقه. وعندما اختار العثمانيون المدينة لتكون مركزاً إدارياً للسنجق الذي استحدثوه في المنطقة، أضافوا إلى الاسم كلمة «الزور» التي تعني ضفة النهر اللحقية الكثيفة الأشجار. أما أهل البادية وأطرافها، فقد أطلقوا عليها اسم «دير الشعار» لكثرة شعرائها من الرجال والنساء، ومنهم الشاعر محمد الفراتي. لقد بقيت المنطقة شبه مهجورة حتى أواخر العهد العثماني، وعندما جعلت في متصرفية مستقلة باسم «سنجق دير الزور» تجمعت فيها جماعات مهاجرة كثيرة من العرب والأتراك والأرمن، لتستقر إلى جانب بدوها المتنقلين، إلا أن الإعمار الفعلي للمنطقة لم يتحقق إلا بعد الاستقلال واستتباب الأمن، والبدء بتنفيذ مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية[٢].

لقد استعان الباحثون السوريون في دراساتهم حول دير الزور بتقارير ورسائل الرحالة كمراجع رئيسة. وبهذا الصدد تعد مذكرات الرحالة البريطانية الليدي آن بلنت من أهم المراجع، حيث تصف قبائل العنزة والشمر والحديدي وغيرهم.

لقد كانت دير الزور وحدة إدارية أحدثتها السلطات العثمانية في العام ١٨٥٨م، ثم أصبحت قائمقامية دير الزور ضمت الجزيرة وشمال البادية، وألحقت بولاية حلب. ثم تطورت إلى مركز سنجق وسمي لواء دير الزور تابع لولاية حلب، وفي العام ١٨٨٨م أصبحت متصرفية مرتبطة بالعاصمة اسطنبول.

وتقع المدينة في منطقة مرت عليها عدة حضارات، وسميت كذلك حين انفصلت عن حلب عام ١٨٦٥م، وتبدو المساحة السكانية والعمرانية واضحة الإتساع وتحول المناطق الخالية من السكان إلى مناطق سكنية ووجود البناء في حي العثمانية (الحويقة) ومناطق أخرى، وكذلك إحداث عدد من الأحياء الجديدة. ففي عام ١٩٠٣م يلاحظ وجود عدد من المدارس وتم بناء ثلاثة مآذن، بوشر بها مسجد النقشبندي الصغير فامتد شارع التكايا وانتهى العمل في بناء الجسر الكبير على شكل جسر خشبي يطفو على سطح الماء فوق مراكب ثابتة ومتصلة مع بعضها البعض، أما الأحياء الجديدة فقد أحدثت في عام ١٩١٢م. وهذه الأحياء هي: حي البعاجين وعلي بك والعثمانية. وبلغ عدد سكان المدينة ١٢ ألف نسمة، ووزعت بعض الأراضي الأميرية على السكان شريطة استثمارها، كما نظمت حديقة المشتل الزراعي في الجانب الأيسر من النهر الكبير عام ١٩١٧م، ولما خرج العثمانيون كان في المدينة أحد عشر حياً وبلغ سكانها ثلاثة عشر ألفاً[٣].

فيما يتعلق بإحصاء عدد السكان، تذكر المصادر الأرمنية وأهمها "الكتاب السنوي للجميع (١٩١٦-١٩٢٠م)" لمؤلفها تيوتيك، (تيودوروث لابجينيان ١٨٧٣-١٩٢٩م، الذي نفي مكبلاً إلى دير الزور عام ١٩١٥م وأضحى شاهد عيان على الأحداث هناك) الذي يؤكد أن المتصرف سواد بك قام بتشكيل لجنة اللاجئين تهتم بإنجاز إحصاء السكان، وأماكن تواجد الأرمن والتدابير التي اتخذت من أجل استقرارهم. ووفق تلك القوائم الرسمية فقد وصل عدد العائلات الأرمنية التي انتشرت في منطقة دير الزور ومحيطها إلى ٧٢ ألف عائلة، تتجمع أفرادها مع الأقرباء البائسين والملاحقين بمصير واحد. وبذلك حوالي ٦٠٠ ألف أرمني مروا من مذبح دير الزور[٤].

ومن أجل دراسة تاريخ الأرمن في دير الزور، توجب علينا التعمق في تاريخ المنطقة فترة الحكم العثماني، من خلال دراسات قام بها أبناء المنطقة وسواهم.

ففي تقييمه لمنطقة دير الزور تحت الحكم التركي يؤكد الباحث أحمد شوحان ابن منطقة دير الزور أن الأتراك اتبعوا أساليب القمع والإرهاب، وعملوا من أجل تتريك العرب الذين نزل القرآن بلغتهم وضربوا العشائر الفراتية ببعضها في سوريا والعراق، مشيراً إلى انتشار الفوضى والرشوة والجهل، مما مهّد ليهود الدونمة، وجمعية الاتحاد والترقي، ولخلايا الماسونية واليهودية العالمية للعمل في السر والعلن لتقويض هذه الدولة، وإعلان العلمانية في أشرس صورها. ولو أن هؤلاء السلاطين ساروا بتلك الخلافة سيرة الخلفاء الراشدين والعلماء والعاملين، لانتشر العلم وانحسر الجهل، وظهرت قوة الدولة في قوة شعوبها، ولما رأينا المجاعات تنتشر هنا وهناك بين الفينة والأخرى[٥].

ويوضح شوحان أن وادي الفرات السوري وقاعدته دير الزور لم يكن حظه أقل مما أصاب المدن الأخرى التي سقطت في قبضتهم، فقد وضع الأتراك باشوات بدير الزور يمتازون بالجهل والغباء، وابتزاز أموال الناس، حتى أن بعضهم لم يكن يحسن القراءة والكتابة، فكان نتيجة ذلك أن زاد الجهل مما دعا كثيراً من البدو وكثيراً من رجال القبائل الفراتية لشق عصا الطاعة وإعلان العصيان وعدم دفع الضرائب، ثم الهجرة من ضفاف وادي الفرات والاستعصاء بالبادية.

وعندما تشكلت التشكيلات الإدارية في الدولة العثمانية أصبحت "دير الزور" سنجقاً ممتازاً يمتد من حدود عانة إلى حدود مسكنة، وتتبعه تدمر إلى الحدود التركية الحالية نصيبين، حيث تتبعه مدينة الرقة وجميع مناطق الجزيرة الفراتية.

أما عن سكان دير الزور، يشير شوحان إلى أن عدد سكان هذه البلدة الصغيرة كان يتغير من وقت لآخر، فكلما هاجروا أو قتلوا قلّ عددهم، وكلما عادوا إلى بلدهم تزاوجوا وعددوا الزوجات فكثروا. ففي القرن السادس عشر كان عدد السكان أربعة آلاف نسمة، في حين أننا نجد عدد السكان عام ١٨٨٠م ما بين خمسة آلاف إلى ستة آلاف وفيها ألف وخمسمائة بيت، وفي عام ١٩١٢م نجد عدد السكان خمسة آلاف يسكنون ألف بيت، بينما نجد السكان أكثر من ذلك بكثير قبل عشرين سنة، ففي عام ١٨٩٣م كان عدد السكان ٦٠٠٠-٧٠٠٠ نسمة، يقفز هذا الرقم عام ١٩١٦م وعام ١٩٢٩م إلى عشرين ألفاً، وسبب هذا الصعود في عدد السكان يرجع إلى التخمين والمشافهة، وعدم وجود إحصائية دقيقة، ثم إلى الحروب والهجرة والغزو.

وآخر إحصائية صدرت عن مديرية الأحوال المدنية بدير الزور تشيرإلى أن عدد سكان المحافظة هو ٧٠١,٩٤٢ ألف نسمة، فمدينة دير الزور والقرى المحيطة بها التي تتبعها وهي ١٨ قرية ١٨٥,٢٥٨ ألف نسمة. أما النصارى فلا يوجد في دير الزور في عام ١٩٢٢م غير أعداد قليلة. إذ يمكن تقسيم المسيحيين إلى قسمين: سريان وأرمن. فالسريان ١٥ شخصاً يتقدمهم بشير كر، والأرمن ٣٠ (خانة) يرأسهم كريم لولو الخياط، سكنوا محلة الرشيدية، أما فيما بعد فعددهم تضاعف أكثر من مرة، ولا يزالون في محلة الرشيدية، ويعملون في التجارة وبيع الذهب.

وبالنسبة لانسحاب الأتراك من دير الزور فإنه في يوم السادس من تشرين الأول ١٩١٨م اجتاز الأتراك الجسر الخشبي للذهاب شمالاً إلى تركيا، وحينما وصلوا حدود ماردين، اختلفوا فيما بينهم فمنهم من طلب العودة إلى دير الزور، ومنهم من رفض وهم

العسكريون بقيادة الأمير آلاي جميل بك. ولما وصلوا ماردين أعلنت الهدنة التي تقضي ببقاء كل دولة في مكانها. فندم الأتراك على ضياع منطقة وادي الفرات والجزيرة الفراتية من أيديهم، وشكلت محكمة عسكرية لمحاكمة حلمي بك متصرف دير الزور وأعوانه، ثم حكمت المحكمة بإعدام كل من السادة: حلمي بك متصرف سنجق دير الزور، جميل بك قائد المنطقة، ابراهيم أدهم بك قائد الفرسان. ثم نفذ فيهم حكم الإعدام رمياً بالرصاص، وحكم على البقية بالسجن. وبذلك انتهى دور الأتراك في منطقة دير الزور ووادي الفرات[٦].

أما عن موقف الديريين تجاه السوقيات يقول الباحث أحمد شوحان في حوار شخصي: "*يعجز قلمي عن وصف السوقيات فقد كان الديريون يأسفون لما حل بالأرمن رجالاً ونساء وأطفالاً. يكفي أبناء هذه المنطقة نبلاً وكرامة أنهم أحسنوا إليهم رغم أنهم كانوا يعانون ويلات المجاعة التي حلت في وادي الفرات وأنهم كانوا يختطفون كثيراً من الأرمن من بين الجنود لإيوائهم وتهريبهم لإنقاذهم من الموت الزؤام*". ويرفض شوحان الإبادة ويدينها، ويرفض بداية التهجير الجماعي قسراً وينظر للأمر من الناحية الدينية فيقول: "*الإسلام لا يرضاه ولا يقره، ويعتبره وصمة عار في جبين الذين اقترفوه وعملوا من أجله*". ويبين أن المسلمين حزنوا على ما نال الأرمن من شقاء أكثر مما فرح به المسؤولون الأتراك وشفوا صدورهم[٧].

لابد من الإشارة إلى أن حياة الأرمن في دير الزور كانت جزءاً من المجتمع الديري، بفضل مساهمات الأرمن في الحياة الثقافية والاجتماعية في دير الزور، من خلال فتح نوادي رياضية، مثل نادي الأخوة الذي تأسس عام ١٩٤٢م واتخذ طابع الثقافة والرياضة في بادئ الأمر، ثم اقتصر على الرياضة، ولديه الفرق التالية: كرة القدم، كرة السلة، كرة اليد، ألعاب القوى[٨].

من جهته سلط الباحث عمر صليبي الضوء على لواء الزور في العصر العثماني من عدة نواحي. ففي تناوله للموضوع إدارياً وسياسياً يذكر أن بعض الأحياء في دير الزور قد تطورت في البدء على حساب المقابر القريبة من المدينة. وتحديداً عن مقابر النصارى الأولى، يشير إلى أنها كانت تقع على طريق الدير- حلب وهي تقابل الثكنات العسكرية في غرب المدينة حالياً يحتل المنتزه وروضة تشرين قسماً منها، الثانية في حي البعاجين الحالي (الجبيلة) وكانت تعرف بكلمة قبور النصارى، وقد تحولت إلى منتزه وتقع شمال مدرسة الإعداد الحزبي لا يفصلهما سوى الطريق.

أما اذا نظرنا من ناحية التطورات الاحصائية للسكان في دير الزور فنجد أن تطورات الأعداد السكانية بشكل عام في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عما كانت عليه في بدايات الحكم العثمانية. في حين كان العدد في عام ١٨٣٧م بألف بيت في الدير، ولواء الزور مؤلفاً من أربعة أقضية وأربع نواح و١٤٨ قرية[٩].

ويشير إلى أن الأرمن الكاثوليك أنشأوا كنيسة صغيرة بعد عام ١٨٦٠م في مدينة الدير قرب الدير العتيق. ويذكر صليبي أنه يصنف الباحثون سكان المنطقة فترة العثمانية بأن جميع الرعايا داخل الدولة العثمانية هم من غير المسلمين، ففي حين كان اليهود يمثلون فئة واحدة باسم (الموسويون) كان للمسيحيين طوائف روحية متعددة فمنهم السريان الارثوذكس والسريان الكاثوليك، والروم (اللاتين) والأرمن. وكانوا من حيث التابعية قسمين رئيسيين هما المسيحيون الشرقيون والمسيحيون الغربيون وفقاً للكنيسة التي يتبعون إليها، وأدى الضغط السياسي عليهم والضغط الاجتماعي إلى تكريس انتمائهم للغرب بشكل

أكبر من الدولة العثمانية آنذاك، ولذلك كان لانتشار الجواسيس، من المسلمين والمسيحيين واليهود والذين كانوا يعرفون باسم (الخفية) لأنهم كانوا يتجسسون على الناس خفية، دوراً كبيراً في عهد الاستبداد الحميدي.

ويذكر أن الدولة كانت تحافظ على طقوس المسيحيين وكنائسهم وتمنح لهم الأوقاف لبناء هذه الكنائس وتعترف لقادتهم الروحيين بسلطات معنوية لدرجة أنهم كانوا يشكلون ضمن طوائفهم دولة داخل دولة وتسمح الدولة لكلام هؤلاء القادة. أما بقية الشعب من هذه الفئات فقد فرضت عليهم أمور متعددة كحمل شارة معينة عند الدخول إلى الحمام لتمييزهم عن المسلمين عند خلع الملابس. أما في الشارع فلهم لباسهم الخاص، ولا يسمح لهم بركوب الخيل وأن تكون منازلهم أقل ارتفاعاً من مساكن المسلمين ولا تقبل شهادة غير المسلم على مسلم. ولكن قانون التنظيمات غير في ذلك نتيجة لضغط الدولة الأوروبية من جهة واقتناع رجال الدولة للذين سمحت لهم ظروفهم عبر الدول الأوربية من التوصل إلى سدة الحكم سواء أكانوا من اليهود أم المسيحيين.

ومن جهة أخرى، كانت الأنظمة المرعية في الدولة تعترف لكل طائفة من الطوائف غير المسلمة بشخصية معنوية وتمنح رؤساء الدين سلطات خاصة على شؤون طوائفهم. وقد جاء في السلنامة العثمانية لحلب بعد ظهور التنظيمات والدستور، ذكر لأسماء الرؤساء الروحانيين وقد كان ممثلهم الراهب ياقوب ملكي أفندي، وممثل الأرمن الراهب قراجيان آغوب أفندي في عام ١٨٩٠م، بينما مثل طائفة الكلدان في سالنامة ١٩١٠م الراهب استيفان أوكين أفندي، والسريان الراهب يعقوب ملكي، وكان ممثل الأرمن آنذاك الراهب ترزيباشيان. ويقول صليبي: *"لم تحدث مثل هذه التصرفات في لواء الزور فقد احتوت البلاد هذه الطوائف المتنوعة من المسيحيين والأرمن، لا بل أن للواء الزور وشعبه مواقف لا تنسى تجاه الأرمن الذين تعرضوا إلى المذابح التركية في الفترة الممتدة من عام ١٨٩٠م وحتى خروجهم"*، مشيراً إلى أنه لم يتجاوز عدد المسيحيين الـ٨٠٠ مسيحي، واليهود لا يتجاوزون الخمسين رجلاً وامرأة وطفلاً، وأن فقراء المسلمين وكذلك المسيحيين والأرمن عانوا من الاستغلال.

ويوضح صليبي أن الواقع السياسي في أواخر القرن التاسع عشر شهد كثيراً من الضغوطات الدولية على السلطنة العثمانية كان لها منعكس كبير في لواء الزور إذ أنه بنتيجة التحريض الغربي، وتنامي الروح القومية في الدولة العثمانية، بدأت المطالبات العرقية بالاستقلال عن الدولة العثمانية وكان من نتاجها ظواهر عدة منها (مذبحة الأرمن) التي كان جزءاً خاصاً، كما الصراع السياسي الاقتصادي الأوروبي على لواء الزور. مؤكداً أن الفطرة السلمية لأبناء البلد ساهمت بإيجاد عمليات الاحتواء للأرمن وتحمل العسف السياسي من جراء ذلك، فإنها لم تدرك لعبة الصراع السياسي على المنطقة دولياً كما أدركت غيره فظلت تتعامل بردود الأفعال البسيطة المنطلقة من الفطرة، ولكنها هي ذاتها التي كانت تفهم لعبة حزب الاتحاد والترقي كما مفاهيم الوحدة العربية التي كانت مطروحة منذ ذلك الوقت.

أما عن تواجد الأرمن في دير الزور، فيؤكد صليبي أنه يعود وجود الأرمن في سورية إلى عصور مغرقة في القدم أما الهجرات الحديثة فقد تمت بعد اضطهادات الأتراك للأرمن في أعوام ١٨٩٥م و١٨٩٦م و١٩٠٩م و١٩١٥م و١٩٢٠م وذلك ومن خلال جملة معطيات وأسباب[١٠].

ويرجع صليبي جذر المشكلة الأرمنية التركية إلى الماضي السحيق، إذ لم تعترف الدولة العثمانية أو دولة بني عثمان بهم حتى عام ١٤٦١م، ويخلص إلى بروز الدور الواضح للأقليات المسيحية في عصر السلطان عبد الحميد وتوصل اليهود في عهده إلى سدة الحكم أمثال (طلعت باشا ونظمي باشا) وغيرهم الذين لعبوا دوراً رئيسياً في عملية التحريض ضد الأرمن لخلافات مذهبية وتنامي الشعور القومي الذي أذكاه الغرب وبدء مبادرات العمل من أجل الإستقلال عن الدولة العثمانية في الغرب والشرق معاً.

مؤكداً أن سوقيات الأرمن لم تكن في زمن واحد وكانت متكررة مما أدى إلى نزوح العديد منهم إلى سورية وغيرها ومنها لواء الزور. ويوضح صليبي أن مسار القوافل للسوقيات التي تمت من مناطق أرمينيا نحو سورية اتخذ عدة محاور فمن موش كان التوجه في القسم الشرقي نحو مدينة ديار بكر ومنها إلى ويران شهر فالرقة فدير الزور، كما جاءت موجة أخرى من أورفة إلى حلب ومن عينتاب عبر مرعش إلى حلب أيضاً باتجاه دير الزور ومن دير الزور جرت سوقيات باتجاهات مختلفة نحو منطقة الموصل وعلى الطريق بينهما في منطقة مركدة والصُوّر جرت لهم مذابح كبرى على يد الأتراك والأكراد التابعين للجيش العثماني.

ويستعرض صليبي ما جمعه من معطيات من بعض الناجين من الإبادة في دير الزور، أمثال السيدة سربوية تاتيوس التي كانت تبلغ حوالي خمسة عشر عاماً عندما وصلت إلى دير الزور في عام ١٩١٠م-١٩١١م . ويعطي تقييمه عن أسباب المذبحة والتي كانت متعددة، فالبعيدة تعود إلى مساعدة الأرمن للإنكليز والفرنسيين، أما أحداث ١٩٠٩م فسببها الرئيسي وفق صليبي هو ثورة (الزيتون) ونتيجة لذلك جرت مذابح الأرمن بالإضافة إلى انطلاق أحداث في شرق الأناضول مما دعا الدولة العثمانية لمحاولة تفريغها من الشباب بسوقهم للخدمة وإجراء المذابح للرافضين كما جرت المذابح للموافقين على الطرق.

ويضيف إلى أن تهجير الأقليات كان لتحقيق الأمان الداخلي للأتراك في الحرب العالمية الأولى وكانوا يسوقون للخدمة جميع الواقعين بين الأعمار١٧-٥٠ عاماً بهدف القضاء على القوى الشابة وهذا ما حدث فعلاً.

وعن الأحداث قرب دير الزور يقول: "*ومن خلال عرض سريع للمعاناة والجرائم يمكن الإحاطة ببعض الصور عن المذابح، فقد كان الانطلاق من تاكرداغ بواسطة البحر حتى اسكندرون ومنها تم السير مشياً على الأقدام إلى الفرات حيث نقلوا بالسفن ودفن بعض الموتى بالعزيزية بين مسكنة وبراجيك وبعد الوصول إلى مسكنة تم السير مشياً تحت لهيب السياط وتأتي فئات مجهولة الهوية من الأتراك غالباً لأن لهجتهم ليست عربية أو من المتعاونين معهم، والمرافقون الأتراك لا حول لهم ولا قوة ولا يدافعون. وبعد الوصول إلى البغيليه ودخول الدير خيم الأرمن عند جسر من الخشب، ودب بهم المرض والجوع وكان عليهم متابعة المسير نحو الموصل عبر الصوّر وهناك الكثير ممن حماهم الديريين، وكانت مواقف أهل الدير فيها الأصالة والشيم فقد أطعموهم وكسوهم وأمنوهم وتزوج قسم كبير منهم من فتيات الأرمن وحموا أعراض بناتهم من الأتراك. وبعد سنة أعاد الأتراك جمع الأرمن وغادروا بهم نحو الصوّر ومركدة وهنالك جرت المذابح الرهيبة، لقد أحاط الأتراك بالأرمن بعد خمسة أيام من المشي فأوقفوا الرجال يعاونهم جنود متنوعوا الهوية الأجنبية وعزلوا النساء والأطفال وأطلقوا على الرجال النار وأحرقوا*

الخشب ووصلت بعض المعلومات عن الحدث إلى الديريين وأن الأتراك سيقومون بقتل المزيد من النساء فكان الصدام معهم وخلصوا النساء والأطفال وساهم بهذا العمل مجموعات من شباب الدير الذين تبعوا من كان في ذمتهم وخلصوهم وتزوجوا منهم على الشريعة الإسلامية. وسمح أبناء البلد بعد خروج الأتراك لمن أراد المغادرة أن يغادر واستضافوا من بقي منهم وأمنوا لهم الأعمال فأبدع الأخوة الأرمن ولا ريب أن الفضل لهم في نشوء بعض الحرف وتطورها في البلد ومما هو جدير بالذكر ان المواقف التركية هذه قد شملت كل الأقليات العرقية فيها ".

ويشير صليبي إلى البرقيات التركية التي كانت تتوالى إلى حلب لقتل الأرمن باسم وزير الداخلية التركية حينذاك طلعت باشا. وأن أهم من قادوا المذابح كانوا من اليهود الذين قادوا الحكم التركي في ذلك الوقت أمثال طلعت باشا وبهاء الدين شاكر باشا والدكتور نظمي باشا وأنور باشا المعروفون بأنهم من يهود (الدونما) حكام تركية آنذاك الفعليين.

ويقول: "*وحيث أن المواقف القومية لم تتغير فلم تكتف الحكومة العربية الثائرة في زمن الشريف حسين بالتفرج بل أن المواقف الذاتية لأبناء الدير الرائعة في حماية الأرمن واقفها كتاب صادر عن قائد الثورة العربية يطالب فيها ابنه الأمير فيصل والأمير عبد العزيز الجربا قائد عشائر الزور آنذاك بتقديم كل العون للأرمن ومنحهم الحكومة الجنسية السورية لتحافظ عليهم*"[١١].

مؤكداً أن المذابح الكبرى كانت بتدبير اليهود الاتحاديين وأنها امتدت بعد خلع السلطان عبد الحميد واصفاً إياها بأنها إحدى المآسي التي عاشها البلد والذين آمنوا بنصرة المظلوم.

وفي دراسته للواء الزور في العصر العثماني اجتماعياً واقتصادياً يشير عمر صليبي إلى العائلات الأرمنية في دير الزور، وأن بيت لولي منهم كريم لولي الخياط وهو خياط ومن قدامى العائلات المسيحية.

إن تواجد الأرمن في المنطقة وفق صليبي هو قديم، إلا أن تواجدهم الرسمي في اللواء جاء بعد أحداث الأرمن في تركيا بدءاً من عام ١٨٩٠م حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، وهم يميلون إلى العمل الصناعي ولهم الفضل في ظهور بعض الحرف في وادي الفرات وتطوير بعضها الآخر.

ويقول: "*لقد عامل أبناء لواء الزور كافة الغرباء معاملة حسنة من حيث حمايتهم كما حدث مع الأرمن والزواج منهم وحفظ أعراضهم مثلهم مثل بقية الفئات الأخرى التي لا تزال أسرهم بالمنطقة وتصاهروا مع أهلها ولقد أدى الظلم بأبعاده السياسية والعسف والجور بأبعاده الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على المواطنين قانوناً أم أخوة، سلطوياً أم اجتماعياً إلى التأثير في البنية النفسية والسلوكية والتي تمثلت بآفاق متعددة، فالإرهاب وانتشار رجال الخفية والتسلط الحكومي والاجتماعي وانتشار الرشوة والفساد وإرغام الشباب على الذهاب إلى الخدمة الإلزامية خارج حدود اللواء والوطن العربي والطبيعة الصحراوية والأصول الأبية قادت إلى ترجمة نفسيه وصفات سلوكية واضحة حدد فيها التناقض سمة، إذ تجد في أبناء اللواء الثورة السريعة والعصبية إلى جانب الهدوء والصبر كما تظهر الطيبة والقسوة والثأر والتسامح معاً*"[١٢].

وفي موضوع تواجد الأرمن في دير الزور ذكرت كذلك صحيفة *الأفكار* في نيسان ١٩١٨ بتفاصيل هامة تسهم في توضيح أسباب تواجد الأرمن في دير الزور، ووصف طرق تعذيبهم والفتك بهم، حيث ذكرت أن الترك أخرجوا ٨٠٠ عائلة أرمنية من قره حصار وأغرقوا نصفهم بإنقلاب الزوارق في نهر الفرات، ولما وصل الباقون إلى دير الزور وضعوا في محلة اعتقال وكان قد سمح لهم عند اخراجهم من قره حصار بأن يأخذوا معهم ما عندهم من النقود، فلما وصلوا إلى دير الزور أخبروا المتصرف في أمر فداء أنفسهم وعرضوا عليه مبلغ ثلاثة آلاف ليرة عثمانية فلم يكتف بهذا القدر وحينئذ جمع الأرمن كل ما كان معهم من النقود فبلغت خمسة آلاف ليرة عثمانية قدموها للمتصرف فقبلها منهم بشرط أن يوقعوا على تعهد. ولكن كل هذا لم ينجهم من مخالب رجال الجندرمة الذين رافقوهم في سيرهم، ولما وصلوا بهم إلى مسافة تسعة أميال من المدينة ابتدأت المذبحة بالعصي والحجارة وقليل جداً من العيارات النارية إلى أن أعيا الجلادين التعب فأجلوا الفتك بمن بقي إلى يوم آخر، وفي نهاية الأمر غمزهم أحد رجال الجندرمة التعبين لكي ينجوا بأنفسهم وكان ظلام الليل دامساً والحرس أقل اكتراثاً فهربت البقية الباقية من ٨٠٠ عائلة وعددها خمسة وخمسون نفساً ونجت بأنفسها.

وأضافت الصحيفة وفق أحاديث رواة أن وصف المذابح كلها كانت تقريباً على نمط واحد فإذا لم يفتك بالمهجرين في الطريق فإنهم يؤخذون إلى مستودع حيث يقيمون أياماً قليلة وهناك يجدون محلة فيها نحو ألفين أو ثلاثة آلاف. ومن ثم يأتي علم من الاستانة بأن الحكومة منحت مهاجري ناحية (مركز) كذا أراض زراعية ويجب بناء على ذلك أن يقوموا إليها فيعودون إلى الرحيل، وفي نصف اليوم الأول من سفرهم يكونون آمنين على نفوسهم لأن القتل "بالجملة" بالقرب من المدن غير ممدوح. ومن الأمثال على ذلك أنه لم يقتل أحد في مدينة طرابزون ولكن بعد أن ترك الأرمن المدينة بأيام قليلة رؤيت جثثهم طافية على وجه مياه النهر. ورأس العين وهي آخر محطة للسكة الحديدية قريبة جداً من العمران فلا يجوز ارتكاب المذابح فيها على الطراز القديم ولكن لا مانع من موت النساء والأولاد جوعاً[١٣].

ونخلص إلى أن الباحثين أجمعوا على أن مدينة دير الزور بدأت بالتوسع نوعاً ما في الفترة العثمانية خاصة سنة ١٨٦٧م، وفي سنة ١٩١٥م ازداد عدد سكان المدينة بشكل ملحوظ جدا وتوسعت أكثر بسبب قدوم الأرمن. فبلغ عدد سكانها في أوائل القرن العشرين حوالي تسعة آلاف نسمة، وارتفع في العام ١٩١٠م إلى ما يقدر بـ ١٥ ألف نسمة، وارتفع حجم سكانها في العامين ١٩١٥-١٩١٦م بسبب عامل الهجرة الخارجية إليها، إلى ما يقارب ٢٠-٢٥ ألف نسمة، ويعزون ذلك إلى الهجرة القسرية الأرمنية من ولايات الأناضول الشرقية، مؤكدين أنه في العام ١٩١٥م قامت إدارة ولاية حلب بتوزيع اللاجئين الأرمن الذين تدفقوا عليها إلى كل من حماة ودير الزور والجزيرة، فعملياً كان التجميع يتم في دير الزور.

كما تؤكد الدراسات أنه رغم الجانب المأساوي من هجرة الأرمن القسرية إلى دير الزور، إلا أن ذلك انعكس على ارتفاع عدد سكان المدينة، وبالتالي ارتفاع معدل النمو السكاني فيها.

وفي النهاية، نلاحظ أن الباحثين السوريين استخدموا تعبير "السوقيات" لوصف عمليات التهجير القسرية والمذابح التي جرت للأرمن، وأن المصادر العربية والسورية

تحديداً تطرقت إلى جذور وأسباب تواجد الأرمن في المنطقة، وكشفت عملية إفناء الجيش التركي بحقهم.

وفي ضوء تلك الدراسات نستخلص أن عمليات الإبادة التي كانت تجري في الصحراء السورية تم تناولها في الأبحاث والدراسات التي غطت الفترة العثمانية في سوريا، حيث ألقي الضوء على تواجد الأرمن في دير الزور معتبرين المذابح التي تعرضوا لها إحدى المآسي التي عاشتها المنطقة.

الهوامش

(Հայկական Համառօտ Հանրագիտարան, Հտր. 2, Երեւան, Տպ. Յակոբ

[1] الموسوعة الأرمنية المختصرة، ١٩٩٥، يريفان، الجزء ٢، ص ٣٢. (1995 ,Մեղապարտ

[٢] *الموسوعة العربية السورية*، ٢٠٠٧، دمشق، المجلد التاسع، ص ٥١٩.

[٣] عمر صليبي، *لواء الزور في العصر العثماني إدارياً وسياسياً*، دمشق، ١٩٩٦،ص ٦٠-٦١

Թէոդիկ, Ամէնուն Տարեցոյցը, Մ.-ՄԴ Տարի, 1916-1920, Բ. տիպ, Հրատ. Գալուստ

[٤] 2009 ,Կիւլպէնկեան Հիմնարկութեան, Հալէպ، *الكتاب السنوي للجميع (١٩١٦-١٩٢٠)، السنة ١٠-١٤*، الطبعة الثانية، حلب، ٢٠٠٩، ص ٦٥.

[٥] أحمد شوحان، *تاريخ دير الزور*، دير الزور، ١٩٨٩، ص ٦٨.

[٦] شوحان ، ص ٥٦، ٧٢-٧٥.

[٧] نورا أريسيان، *عوائل الأرمن في الفكر السوري، موقف المفكرين السوريين من الإبادة الأرمنية*، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٤٤.

[٨] شوحان، ص٢٤٣.

[٩] صليبي، ص ٦٠, ١٥٣.

[١٠] المرجع السابق، ص ٢٠٦.

[١١] المرجع السابق، ... ص .٢٢٣

١٢ صليبي، ص ٤٣، ٦٩.

١٣ *الأفكار*، العدد ١٢١٩ تاريخ ١٩١٨/٤/٦، (صحيفة *الأفكار*، صدرت في سان باولو عام ١٩٠٣م).

ՀԱՅՈՑ ՑԵՂԱՍՊԱՆՈՒԹԵԱՆ ՇՐՋԱՆԻՆ ՏԷՐ ԶՕՐԻ ՄԷՋ ՀԱՅԵՐՈՒ ՆԵՐԿԱՅՈՒԹԻՒՆԸ՝ ԸՍՏ ԱՐԱԲԱԿԱՆ ԱՂԲԻՒՐՆԵՐՈՒ (ԱՄՓՈՓՈՒՄ)

ՆՈՐԱ ԱՐԻՍԵԱՆ
narissian@hotmail.com

Յօդուածը կը լուսաբանէ ԺԹ. Դարավերջ-Ի. Դարասկիզբի Տէր Զօրի իրավիճակը եւ հայերու ներկայութիւնը այնտեղ՝ ըստ արաբական աղբիւրներու:

Ուսումնասիրութիւնը կ՚օգնէ ծանօթանալու Տէր Զօրի շրջանին՝ պատմական անուանումէն մինչեւ քաղաքի կազմաւորման եւ հայերու այնտեղ ներկայութեան խնդիրներուն:

Հիմնուելով արաբ, մանաւանդ սուրիական, աղբիւրներու վրայ - որոնք Հայոց Ցեղասպանութեան պատմագրութեան համար բաղկացուցիչ նիւթեր կը համարուին - կը հետազօտուի Ցեղասպանութեան օրերուն Տէր Զօրի հայ գաղթականութեան իրավիճակը:

Վերոյիշեալ աղբիւրները տեղեկատուական վկայութիւններու կողքին կը ներկայացնեն սուրիական արաբական տեսակէտը Տէր Զօր բնակութիւն հաստատող հայերու նկատմամբ, մասնաւորաբար՝ Հայոց Ցեղասպանութեան առնչութեամբ անոնց դիրքորոշումը: